الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي

أ. م . د . نضال أحمد باقر
الكلية التربوية المفتوحة

تاريخ الاستلام : 15-09-2021
تاريخ القبول : 22-09-2021

ملخص البحث:

إنَّ محاولة رصد ظاهرة الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي تكشف عن موقفها النفسي منه ، وبيان مدى حبها له واعتزازها به، أو نفورها منه، ومن ثم تتبعنا ظاهرة السفور التي تتشكل بالضد من ظاهرة الحجاب بوصفها دالة ارتهنت بالأعراف والتقاليد في المجتمع الجاهلي.

ونظرًا لاتساع مصطلح الحجاب وتشعبه في مفهومه اللغوي بوصفه دالاً على الستر والمنع والحيلولة، قسمنا البحث الى مبحثين، تناول المبحث الأول: الحجاب الملبوس، فيما تناول المبحث الثاني: الحجاب غير الملبوس، وبيان أثر هذين النوعين في إثراء صور الحجاب ومدلولاته، وإظهار قدرة هذا الشعر على حمل معاني الحجاب وأهدافه التي تنشدها الشواعر الجاهليات بوصفهن المعبرات عن طموح المرأة العربية ورغباتها في العفة والطهارة مع العيش بآمن وسلام.

توصل البحث الى القيمة العليا التي يتمتع بها حجاب المرأة وما يمكن أن يحدثه عند الآخر (الرجل)، إذ تبينَ أن المرأة لم تكن وحدها حريصة على الستر والعفاف، بل شاركها في ذلك الرجل، فقد كان مطلباً مشتركاً بينهما على الرغم من وجود دراسات وأبحاث تشير إلى تهميش المرأة وإباحيتها في تلك الفترة المتقدمة من الزمن.

الكلمات المفتاحية: الستر، الحجاب الملبوس، الحجاب غير الملبوس.

Hijab (scarf) in Women's Poetry in the Pre-Islamic Era

Assist. Prof. Dr. Nidal Ahmad Baqir
Open Educational College
nidalahmedbaq@gmail.com

Receipt date: 2021-09-15
Date of acceptance: 2021-09-22

Abstract

The attempt to monitor the phenomenon of hijab in women's poetry in the pre-Islamic era reveals her psychological attitude towards it, and shows the extent of her love for it and her pride in it, or her distaste for it. Then We followed the phenomenon of unveiling (non- Hijab) which is formed by the opposite of the phenomenon of the veil (Hijab) is a function that depended on customs and traditions in the pre-Islamic society, and due to the expansion of the term veil (Hijab) and its ramifications in its linguistic concept as a sign of concealment, prevention and prevention, The research fell into two sections, the first section is Hijab worn and the second part deals with non-wear Hijab and explaining the impact of these two types in enriching the images of the veil and its implications, and demonstrating the ability of this poetry to carry the meanings of the veil (Hijab) and its goals that were launched by pre-Islamic poets as expressing the aspirations of Arab women and their desires for chastity and purity while living in security and peace.

The research reached the highest value that a woman's Hijab enjoys with and what it can do to the other (the man), as it turned out that the woman was not the only one pays attention to chastity, but rather shared it in that man, as it was a common demand between them despite the existence of studies and research indicating the marginalization and permissibility of women in that advanced period of time.

Keywords: Covering, Wearing Hijab, non-wearing Hijab

.

المقدمة:

يمتلك شعر المرأة في العصر الجاهلي مقومات الإبداع والخصوبة مما يستدعي مواصلة البحث والتنقيب عن الاصالة والتجديد؛ وقد تميز شعرها من شعر الرجل بأنه اكثر انفعالاً من الرجل وأرق وأعمق عاطفةً منه.

وقد انثال الشعر على لسانها مباشرةً معبرًا عن انفعالاتها الآنية، وما كان يجول في خاطرها، وما انطوت عليه نفسيتها من اضطرابات مثلت مصدراً من مصادر سعادتها أو مصدراً من مصادر حزنها وآلامها ومعاناتها.

تناولت المرأة الشاعرة في العصر الجاهلي معظم الأغراض الشعرية الشائعة آنذاك مثل غرض الرثاء أو المديح أو الغزل أو الهجاء أو الحماسة والتحريض؛ وبذلك إضافة اليها نوعاً جديداً من الظواهر المادية والمعنوية والأخلاقية ومنها موضوع البحث ((الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي)).

يهدف البحث إلى الكشف عن الحالة النفسية للمرأة الشاعرة من خلال ما تدفق على لسانها من الشعر وبيان موقفها من الحجاب ، ومدى التزامها واعتزازها به، أو نفورها منه، وتتبع ظاهرة السفور في المجتمع الجاهلي ومعرفة مدى انتشارها وتأثرها بالأعراف والتقاليد القبلية؛ فضلا عن الكشف عن المؤثرات النفسية، والاجتماعية والسياسية التي دفعتها إلى قول هذا الشعر من خلال ذكر الوقائع والأحداث في سياقها التاريخي والاجتماعي والسياسي الذي عاشته المرأة الشاعرة في تلك الحقبة الزمنية وأثرها في إثراء صور الحجاب ومدلولاته، وأنواعه مستفيدين مما عثرنا عليه من قصائد أو مقطوعات أو أبيات متناثرة نرصد فيها ظاهرة الحجاب.

كشف البحث عن قدرة هذا الشعر على حمل معاني الحجاب وأهدافه التي تنشدها الشواعر الجاهليات بوصفهن المعبرات عن طموح المرأة العربية ورغباتها في العفة والطهارة مع العيش بآمنٍ وسلام من غير خوف او قلق من الغرباء ولا خشية من أية غواية من شأنها ان تنال من موقفها الفطري السليم في الحفاظ على الستر والعفة والحياء.

جاءت أهمية البحث من أن الموضوع لم يدرس دراسة علمية منظمة مستقلة؛ بل جاء شعر المرأة فيه عبارة عن بيتٍ أو بيتينِ تناثرت هنا وهناك على عجالة بين ثنايا مبحث أدبي كبير، فضلاً عن أنّ أغلب الشواهد الشعرية انصبت على شعر الشعراء الرجال؛ لوفرة دواوينهم الشعرية ولسهولة التناول، وقد اكتفت بعض الدراسات بإشارات سريعةٍ عن حجاب المرأة وكأنَّ الحجاب لم يكن وارداً في شعرها، ولم تظهر صورتها فيه، ولم يكن الأمرُ يعنيها.

وعلى الرغم من ذلك نجد تعدد الدراسات الأدبية التي اهتمت بدراسة واقع المرأة ومكانتها في العصر الجاهلي، وقد كان أقربها إلى موضوع الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي دراستي الدكتور أحمد محمد الحوفي، والدكتور علي الهاشمي (المرأة في الشعر الجاهلي)، ودراسة الأستاذ عبد الله عفيفي (المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها)، إذ تعرضت هذه الدراسات إلى موضوع الحجاب وأكثرت من الشواهد الشعرية لشعر الشعراء الرجال.

ولا بُدّ من الإشارة إلى وجود دراسات أدبية وبحوث علمية كثيرة تناولت إبداع المرأة في عالمها الشعري، فدرست فيه جانباً محددًا وبارزاً كموضوع الرثاء أو الحماسة أو التحريض، وتركت الجوانب الأخرى التي ظلت جديرةً بأن تكون موضوعًا للدراسة.

أما المنهج الذي وجدناه يتناسب مع طبيعة هذه الدراسة، فهو المنهج التكاملي التحليلي لقدرته على استيعاب كل مفاصل الموضوع ، وجمعتُ المادة الشعرية من كتب الأدب والتراث والنقد العربي.

اقتضت مادة البحث تقسيمه على مقدمة بيّنا فيها أهداف الموضوع وأهميته، وتمهيد تناولنا فيه ماهية الحجاب ونشأته ومبحثين، تناولنا في المبحث الأول الحجاب الملبوس وفي المبحث الثاني الحجاب غير الملبوس، وكان مسك الختام خاتمة أوجزنا فيها أبرز النتائج التي توصلنا إليها، وذيلنا البحث بقائمة للمصادر وللمراجع التي عولنا عليها في معالجة مادته.

التمهيد: ماهية الحجاب ونشأته

ونحن نبحث في موضوع الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي وجدنا أنّهُ من المفيد أن نمهدَ له بإضاءة على المدلولين اللغوي والاصطلاحي للفظة الحجاب قبل الخوض في الحديث عن نشأة الحجاب وأنواعه.

الحجاب في اللغة: هو الستر ((حجبَ الشيء يحجبه حجبًا وحجابًا، وحجبه سترهُ، وقد احتجب وتحجب إذا اكتن من وراء حجاب، وامرأة محجوبة قد سُترت بساتر)) (ابن منظور، 2003، 325)، وقيل للبواب حاجب؛ لأنهُ يمنع الناس من الدخول إلاّ بإذنٍ خشية الأذى يصيبه، ومثله قيل للحاجبين من الرأس حاجبان؛ لأنهما يحجبان عن العينيين الأذى (ابن منظور،2003: 325)، وقد وردت مفردة الحجاب في القرآن الكريم في مواضع عديدة منها قوله تعالى: ﴿ وإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍۚ ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّۚ﴾ (سورة الأحزاب، 53) أي من وراء ستار يحول بينكم وبينهُنَّ، إذاً الحجاب هو الستر والمنع والحيلولة.

الحجاب اصطلاحًا: قيل هو ما تلبسه المرأة من الثياب أو العباءة، وما اتخذته من حوائل بينها وبين الرجال الأجانب (القلعجي،1988: 174)، وقيل هو ((كل ما ستر مطلوبك)) (الجرجاني،2003: 87) سواءً أكان لباسًا فضفاضًا غير شفاف أم كان خدراً أم جبلاً أم حصنًا أم هودجًا أم غير ذلك مما ورد في شعر المرأة في العصر الجاهلي.

ومن هنا نجد أنّ المعنيين اللغوي والاصطلاحي يظهران تلازمهما وتوافقهما إلى حدٍ كبير في تكريس الستر للشيء المراد حمايته والعناية به.

نشأة الحجاب:

نشأ الحجاب الذي هو الستر منذ بداية نشأة الخليقة، فالستر والعفة والحياء فطرة فطر الله سبحانه وتعالى عليها الناس جميعًا رجالاً ونساء، وجعل نفوسهم مجبولة عليها ، فقد ألهم الله تعالى أبونا آدم وأمنا حواء (عليهما السلام) إلى كيفية ستر العورة وأوجد لهما السبيل إلى ذلك، بعد أن أغواهما الشيطان الرجيم أن يأكلا من الشجرة التي نهاهما الله سبحانه وتعالى عنها فبدت لهما سؤتهما، قال تعالى: ﴿ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٖۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتۡ لَهُمَا سَوۡءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخۡصِفَانِ عَلَيۡهِمَا مِن وَرَقِ ٱلۡجَنَّةِۚ ﴾ (سورة الأعراف:22).

ومن هنا نجد الإشارة الأولى في تهذيب النفس وتدريبها على ستر العورات والعيوب التي يجب ألاّ يطلع عليها الآخرون، وفي آية أخرى من الكتاب الحكيم أكثر تفصيلاً يخاطب فيها الله سبحانه وتعالى آدم (عليه السلام) وبنيه، يشير فيها الله تعالى إلى اللباس الذي يستر العورات تحديداً ،قال تعالى: ﴿ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴾ (القرآن الكريم، سورة الأعراف، الآية 26). إنَّ الله تعالى أغدق علينا من نعمه التي لا تُعدُّ ولا تحصى، ومن هذه النعم نوعين من اللباس الذي يستر عوراتنا، الأول هو اللباس العادي الذي نرتديه في سائر الأيام ، والنوع الآخر من اللباس يُلبس للزينة، بدلالة ريش أي مزركش وما شابهه ، وزاد عليهما لباس التقوى وهو أصل كل شيء ومصدره، فالتقوى هي حفظ الإنسان لنفسه وصونه إياها مما يؤذيها (ابن منظور، 2003: ٣٨٤-٣٨٥).

وبعد هذا نجد أن هذه الفطرة توارثتها الأجيال من بني آدم (عليه السلام) جيلاً بعد جيل ، وقد توافقت الفطرة السليمة مع الشرع في الأديان السماوية جميعها كاليهودية، والمسيحية، والدين الإسلامي حتى أصبح حجاب المرأة عادة تمارسها المرأة على اختلاف ديانتها، فضلاً عن المرأة المشركة.

وقد جاء في كتاب (دائرة معارف القرن العشرون) ما خلاصته ((كان من عادة نساء اليونانيين القدماء أن يحجبن وجوههن بطرف مآزرهن أو بحجاب خاص... وكان الفينيقيات يحتجبنَ بحجاب أحمر، وقد تكلّم عن الحجاب أقدم مؤلفي اليونان حتى يروى أنّ بنيلوب امرأة الملك عويلس ملك جزيرة إيتاك كانت تظهر محتجبة وكان نساء مدينة ثيب يحتجبن بحجاب خاص، وهو عبارة عن غطاء يوضع على الوجه وله ثقبان أمام العينين تنظر منهما المرأة ... وكان نساء الرومان مغاليات في الحجاب لدرجة أنّ القابلة (الداية) كانت لا تخرج من دارها إلا مخمورة ملثمة باعتناء زائد وعليها رداء طويل يلامس الكعبين، وفوق ذلك عباءة لا تسمح برؤية شكل قوامها)) (وجدي، بلا: 335- 336).

ويبدو أنّ المرأة بعد ذلك كانت قد حصلت على شيء من التسهيل في حجابها ((فقد دلت النقوش على أنّ النساء كن يغطين رؤوسهن ويكشفن وجوههن، وكان الحجاب موجودا عند نساء البيلتريين، والشعوب النازلة في آسيا الصغرى والميدينين والفرس والعرب)) (وجدي، بلا: 336).

إذاً لكل مجتمع من مجتمعات العالم، والعرب منهم لا ريب في ذلك عادات وأعراف تمارسها المرأة وتدخل ضمن الطبيعة الجماعية لتلك المجتمعات، فعادة لبس الحجاب ظهر أثرها على النواحي الفكرية والثقافية والاجتماعية والأخلاقية.

وفي المجتمع الجاهلي كان الحجاب زيًا معروفًا لدى المرأة العربية، وإن تعددت أشكاله وصوره إلاّ إنّ الهدف منه واحد هو ستر مفاتن جسد المرأة عن الغرباء، ولم يكن حجاب المرأة في العصر الجاهلي في أغلب الأحيان لتحقيق هدف ديني، بل جاء متناسبًا مع ما جبلت عليه فطرتها من العفة والحياء، فضلاً عما أملته عليها ظروف مجتمعها القبلي، وما كان يمارسه أبناؤه في الغزوات من عادة سبي النساء؛ لتكون بعد ذلك الحاجة إلى الحجاب ملحة، فاستجابت لها المرأة في تلك الفترة، وقد أثرت تجربتها الحياتية والأدبية بها مما أسهم في انبثاق صور لافتة للنظر في نتاجها الشعري الذي عكس تطلعات أبناء المجتمع التي أملتها ظروف تفاعلها معهم أخلاقيًا وروحيا وإنسانيا .

ورد الحجاب في الشعر الجاهلي كثيرًا، سواء أكان في شعر المرأة أم في شعر الرجل الذي كان حريصًا على التغني بالمرأة وبعفتها وبحيائها، وقد تفنن في طرق حمايتها والحفاظ عليها والدفاع عنها ((فلم يكن شيء يثير القوم كالاعتداء على النساء أو المساس بهن، ولذلك كانوا يتجشمون كل الصعاب ولا يضنون بكل غال، لقد كانت الغيرة تولد مع القوم وكأنهم رضعوها مع لبان الأمهات)) (صيام، 1982: 350)، وعلى الرغم من ذلك نجد أن الحرص والغيرة علة المرأة كانت خاضعة لمكانة المرأة في المجتمع الجاهلي، فالمرأة الحرة يغار عليها الرجال فهي محصنة ومحترمة لديهم. أما المرأة الأمة فلا مكان لها

وتُعدُّ من سقط متاع الجاهليين ولا كرامة لها، إذ كانت تُباع وتُشترى، ولا حرية لها، إذ هي مستعبدة خاضعة لسلطة سيدها حتى أنها كانت تُمنع من ممارسة حقها في ارتداء الحجاب منعاً لتشببها بالنساء الحرائر.

وعلى ما يبدو أن الباحث جرجي زيدان حين تحدث عما تتمتع به المرأة من مكانة راقية في المجتمع الجاهلي، كان يتحدث عن المرأة الحرة، فقد عدَّ مشاركة المرأة بأخيها الرجل في المجالات الحياتية كلها مؤشراً على رقي العرب في الجاهلية، إذ قال: ((ومن أكبر الأدلة على رقي العرب في جاهليتهم ارتقاء نساءهم، فقد كان للمرأة عندهم رأي وإرادة وكانت صاحبة آنفة ورفعة وحزم ... فنبغ غير واحدة منهن في السياسة والحرب والأدب والشعر)) (زيدان، 2012: 43)، وفي هذا دلالة واضحة على رقي المرأة الحرة ودورها الفاعل في ميدان الحياة السياسية والاجتماعية بوجه عام والأدبية بوجه خاص، فالمتقصي لكتب التراث العربي يجد فيها نبوغ عدد غير قليل من الشواعر الجاهليات كان لهن شان كبير في قول الشعر؛ لأنّ ((العاطفة والحس المرهف هما من مقومات الشعر ومن مقومات طبيعة المرأة)) (الهاشمي،1960: بلا)، ومن هؤلاء الشواعر اللواتي برزن في نظم الشعر، الخنساء بنت عمرو بن الشريد، وأم عمران بنت وقدان، وهند بنت النعمان بن المنذر، وجنوب الهذلية، و وهيبة بنت عبد العزى، وغيرهُن كثير، وقد ذكرت المصادر الأدبية أنّ النابغة الذبياني أثنى على شعر الخنساء بنت عمرو بن الشريد حين أنشدته شعرها في سوق عكاظ، فقال لها:((والله لولا أن أبا بصير أنشدني (آنفًا) لقلت إنّكِ أشعر الجن والإنس)) (ابن قتيبة، 1969: 344)، كما أثنى المبرد في كتابه الكامل في اللغة والأدب على ليلى الأخيلية والخنساء، فقال:((كانت الخنساء وليلى بائنتين في أشعارهما متقدمتين لأكثر الفحول)) (المبرد، بلا: 335)، ولهذه المكانة ولهذا الدور الفاعل في قول الشعر ومقارعة فحول الشعراء تناول البحث شعر المرأة بالدراسة، لا سيما في موضوع الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي الذي يتعلق بكيانها وبهيأتها وبكل ما يحيط بها في عالمها الخاص.

أنواع الحجاب:

تعددت صور الحجاب وأنواعه، فلا يمكننا الحديث عن نوع واحد منها في العصر الجاهلي؛ لأنّ مصطلح الحجاب واسع، ومتشعب تتسع دلالته إلى أكثر من الملابس، فقد تلتقي فيه المعاني الأخلاقية والنفسية والثقافية والاجتماعية، والبيئية فضلاً عن الأعراف والتقاليد، ولا بُدَّ من الإشارة إلى أن الباحث عبد الله عفيفي، كان قد قسّم الحجاب في العصر الجاهلي الى نوعين، إذ قال:((يطلق الحجاب على واحد من اثنين: أولهما قرار المرأة في دارها والاحتجاب دون الرجال فلا تكون بمرأى ولا

مسمع منهم ... والثاني: إرخاء القناع على وجهها إذا غادرت دارها لبعض شأنها)) (عفيفي، 1932: 101). إلاّ إن النصوص الشعرية التي نظمتها المرأة الشاعرة في العصر الجاهلي تشير إلى وجود الحجاب بنوعيه الأول والثاني ، ويتسع إلى أكثر من ذلك بكثير ليشمل الخدر والجبل والحصن المنيع، والركن الأمن والليل فضلاً عن الرجل، لذا كان لزامًا علينا أن نقسم الحجاب على نوعين هما: أولاً : الحجاب الملبوس. ثانياً: الحجاب غير الملبوس.

المبحث الأول: الحجاب الملبوس

هو كل لباس ترتديه المرأة وتهدف من خلاله إلى ستر مفاتن جسدها عن الأجانب، وقد تنوعت صوره وأشكاله، ومن صوره التي وردت في الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي (النقاب) الذي وردت له عدة وجوه ومسميات تبعًا لكيفية ارتداء المرأة له، كما ورد في لسان العرب عن الفراء، قال:((إذا أدنت المرأة نقابها إلى عينيها، فتلك الوصوصة فإن أنزلته دون ذلك إلى المحجر، فهو النقاب، فإن كان على طرف الأنف فهو اللفام)) (ابن منظور، 2003 :664- 665).

إذاً النقاب هو رداء تستر به المرأة رأسها ووجهها إلاّ العينيين، وقد ورد النقاب في قول الشاعرة أم عمران بنت وقدان (وهي من الشواعر المتحمسات في الجاهلية وشعرها يغلب عليه الهيجان بين العرب)، (فواز، ٢٠١٢: 106)، فبعد أن قرنت الشاعرة أم عمران بنت وقدان بين المكاحل والمجاسد وكلاهما من زينة المرأة، فالمجاسد هي الثياب المصبوغة بالزعفران والعصفر وغالبًا ما يكون لونها أحمر(ابن منظور، بلا: 128) وهي من ألبسة المرأة الناعمة، ففي سياق تحريض الشاعرة قومها على أخذ الثأر قالت:

إن أنتم لم تطلبوا بأخيكم فذروا السلاح ووحشوا بالأبرق

وخذوا المكاحل والمجاسد والبسوا نقب النساء فبئس رهط القوم المرهقِ

(المرزوقي، 2003م: 1081) من خلال استنطاق البيتين نجد أن الشاعرة حين حفزت القوم على الأخذ بالثأر ورفض الصلح أو أخذ دية مَنْ قتل منهم؛ إنما كانت تحفز فيهم الغيرة والحمية التي يعرفها الرجل العربي قبل غيره، فهي لا تريد الانتقاص من شأن المرأة، بل أرادت أن تذكرهم بواجبهم الذي يحتم عليهم حمل السلاح ومواصلة القتال من أجل الاقتصاص من الغزاة المعتدين لاسترجاع عزة وكرامة وهيبة القبيلة؛ لأنّ الأخذ بالثأر يمنح القبيلة القوة والمنعة والهيبة بين القبائل الأخرى؛

مما يجعل المرأة في مأمن من الغزو الذي يؤدي بدوره إلى سبي النساء الذي يعرضهن إلى الذل والمهانة وهتك الستر الذي حرصن واجهدنّ أنفسهن في الحفاظ عليه سواء أكان في الكلمة الصارخة التي تلقيها على مسامع رجالها أم في لبسها للحجاب (النقاب).

وفي الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي نجد (الجلباب) حاضرًا إذ لم تكن النساء جميعهن يسترن وجوههن بالنقاب وما شابهه ، فقد تبين لدينا أن بعضهن كن يلبسنّ(الجلابيب)، والجلباب هو لباسٌ واسع يستر جسد المرأة وصدرها ورأسها فقط (ابن منظور، 2003: 162–163) وقد ورد ذكره في قول الشاعرة جنوب الهذليّة (وهي جنوب بنت عجلان بن عامر من بني هذيل شاعرة جاهلية، وهي أخت الشاعر الجاهلي عمرو ذا الكلب، (اليسوعي، 1897: 75) وهي ترثي أخاها عمرو ذا الكلب الذي كان قد قُتل في أحدى الغزوات، إذ قالت:

تمشي النسور إليه وهي لاهيةٌ مشي العـذارى عليهُـنَّ الجلابيب

المخرج الكاعب الحسناء مذعنة في السبي ينفح من إردانها الطيبُ

(اليسوعي، 1897: 78).

رسمت الشاعرة جنوب الهذلية صورةً جميلة للنسور، إذ شبهت مشية النسور وهيأتها بمشية النساء العذارى، وهن يلبسنً الجلابيب السوداء، وخصت النساء العذارى منهن؛ لعلمها بأن الفتاة العذراء (البكر) أشد عفةً وحياءً أو خجلاً من غيرها من النساء، فضلاً عن ذلك وسمتهنّ بالوقار والهيبة، إذ يسترن مواضع زينتهنّ بالجلابيب، فالجلباب هنا ليس ثوبًا تستتر به المرأة فحسب، بل هو وقار وحشمة، وبهذه الهيأة للنسور المتشبهة بالمرأة في زيها ومشيتها لا تعبأ أن تخطر متبخترةً حول جثة أخيها الفارس الشجاع عمرو ذي الكلب بلا خوف أو فزع منه لعلمها أنه ميت لا حراك له.

ثم عرجت الشاعرة جنوب الهذلية لتصف الواقع الاجتماعي الذي كان أخوها يعيشه، إذ أخذت تتفاخر بفروسيته وبشجاعته، وبما كان يفعله في غاراته من سبي النساء الحرائر وبنات الأغنياء واخراجهن من خدورهُنّ مذعورات من هول ما لحق بهن من أثر السبي، والسبي واحد من المظاهر المعبرة عن فعل القوة والشجاعة عند الشاعرة جنوب، وهو من المظاهر السلبية السائدة عند بعض القبائل العربية في العصر الجاهلي فقد كان وقوع المرأة في الأسر ((خسارة وأي خسارة بالنسبة للمغلوبين، وكسب وأي كسب بالنسبة للغالبين، وكان الذين يتخذون النهب والغزو وسيلة للتكسب والارتزاق أمثال الصعاليك

وغيرهم إنما يوجهون همهم إلى النساء بالدرجة الأولى وإلى الشريفات منهن خاصة)) (الهاشمي، 1960: 253) وعلى ما يبدو أنّ أخا الشاعرة عمرو ذا الكلب كان من الشعراء الصعاليك (خليف، 1966: 171).

عانت المرأة في العصر الجاهلي من مساوئ السبي لاسيما أن بعض القبائل كانت تبالغ في الحط من شأن المرأة السبية، وتتبع شتى الأساليب المرتبطة بالوحشية والبهيمية في إهانتها، إذ لم تكتم المرأة السبية تلك المعاناة في صدرها بل نقلتها في نتاجها الأدبي، لذا انتقلت معه أفكارها ومشاعرها الإنسانية؛ لأنّ الأديب بصورة عامة، إذ ((يعبر عن أفكاره ومشاعره، فإنه لا يعبر عن تلك الأفكار في عزلة عن الواقع الاجتماعي... بل يقدمها في سياق واحداث ومواقف وعلاقات اجتماعية) (أسعد، ١٩٨٦: 41)، فالشاعرة الفارعة بنت شداد من بني مُرة (شاعرةٌ جاهلية رثت أخاها أبا زرارة بن مسعود بن شداد العذري، وهو أحد فرسان قومه المعدودين قُتل في يوم الزريب من أيام الجاهلية، ولها شعر ترثيه فيه (اليسوعي، 1897: 98)، كان قد أسرها عرعرة بن عاصية السلمي الذي كان قد غزا قبيلة هذيل طلبًا بدم أخيه عمرو بن عاصية الذي قتله بنو هُذيل فجردها من ثيابها وهتك سترها وساقها عارية إلى بني سُليم وحين ذاك قالت:

آلامت سُليم في السياق وأفحشت وأفـرط في السوق العنيـف أسارها

لعـلَّ فتـاة منهم أن يسوقهـا فـوارس منـا وهي بـادٍ شوارها

(يموت،1934: 88).

ومن صور الحجاب الملبوس(البرقع) وهو غطاء تغطي به المرأة وجهها وهو يشبه النقاب إلى حد كبير ويحتوي على فتحتين للعينيين (ابن منظور، 2003: 396–397)، وقد يكون شفافاً قابلاً للرؤية كما نراه اليوم.

والظاهر أنّ الشاعرة هند بنت النعمان بن المنذر ملك الحيرة (وهي من الشواعر المخضرمات وعدت من أجمل نساء زمانها ولقبت بالحرقة، اعتنقت النصرانية وأدركت الإسلام ولم تسلم، ماتت سنة 20 هـ (باقر،2011: 53) حين أرادت أنْ تمدح صفية بنت ثعلبة الشيبانية (هي شاعرة جاهلية، وهي أخت عمرو بن ثعلبة الشيباني الشاعر الفارس الذي كان قائدًا في معركة ذي قار (المشهداني، ١٩٨٧: 34–35)، لم تجد صفة أقوى وأميز من الستر والعفة والحياء تمدحها بهن، ففي سياق غرض المديح أشارت إلى الحجاب (البرقع) الذي كانت صفية بنت ثعلبة تستتر به، إذ قالت بعد انتصار العرب على الفرس في معركة ذي قار:

المجـد والشرف الجسيم الأرفـع بصفيـة في قومهـا يتوقـع

ذات الحجاب لغير يـوم كريهة ولدى الهياج يُحل عنها البرقع

نطقـاء لا لوصـال خل نطقها لا بل فصاحتها العوالي تُسمع

لا أنسَ ليلـة إذ نزلت بسوحها والقلـب يخفق والنواضر تدمع

(باقر، 2011: 60).

من خلال استنطاق الأبيات نجد أنّ الشاعرة وضعتنا أمام علامتين بارزتين توحيان بالستر والعفة أحدهما جسدية تمثلت في ارتداء الممدوحة للحجاب (البرقع) وعدم التخلي عنه إلا في أيام الحرب، والعلامة الثانية نفسية أو معنوية تتمثل في عدم خضوع الممدوحة للتصنع والترقق في القول للفت أنظار الرجال، إذ هي محترمة صانت نفسها عن كل ما يحط من شأنها، لاسيّما أنها من الحرائر، وقد جاءت هاتان العلامتان لإثبات الوجود، ومن ثم إثبات القوة والنفوذ للقبيلة، فغالبا ما تشتبك القبيلة في صراعات قبلية أو أممية وحين ذاك تلجأ المرأة إلى الاستعانة بحجابها، فيكون أداة رمزيةً إذا ما أقدمت المرأة على خلعه والتلويح به على الرغم من اعتزازها به وحرصها الشديد على ارتدائه، وعدم التخلي عنه ، ويأتي فعلها هذا في نطاق رفع همّة الفرسان لمقاومة الأعداء واحراز النصر((فالمرأة التي تضرم جمرة الحرب وتخوض غمرتها، وترسل الكلمة فتعنوا لها الوجوه وتنخلع من هولها القلوب لا يضيرها أن تخرج سافرة للرجال، تحت ظلال السلم أو بين لواقح الحرب، وليس بنافعها أن تتوارى عــن العيــون وتسدل دونهــا الحجب)) (عفيفي، 1932: 101)، وبهذا السمو والارتقاء وجدت هند بنت النعمان بن المنذر الممدوحة صفية الشيبانية التي أجارتها من كسرى وجنوده بعد أن طلبت منها الإجارة فرحبت بها وخرجت صفية الشيبانية إلى قومها بني شيبان تعلن لهم في شعرها إذ بينت لهم ما تعنيه هذه الاجارة من حرب ضروس بين كسرى وجنوده وبين بني شيبان وحلفائهم من بكر بن وائل وغيرهم... فوافقوها قومها لما كان لها من مكانة عظيمة لديهم، فكانوا لا يبرمون أمراً قبل الرجوع إليها فهي حكيمة القبيلة وشاعرتها وكانوا يلقبونها بالحجيجة لقوة منطقها (المشهداني،1987: 34).

إنّ المتقصي لشعر الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي لا يعدم المظاهر التي تؤكد بروزها بين الرجال ونيلها الاهتمام والتقدير، فقد ((كانت الشرائف من النساء يقعدن للرجال للحديث، ولم يكن النظر من بعضهم إلى بعضٍ عارًا في الجاهلية ولا حرامًا في الإسلام)) (الجاحظ، 1964: 149). وخير شاهد على ذلك بروز الخنساء بنت عمرو بن الشريد التي

نشأت في الجاهلية وأدركت الإسلام فأسلمت إلى سوق عكاظ؛ لرثاء موتاها ولتعلن للناس مصيبتها في أبيها عمرو بن الشريد وأخويها صخر ومعاوية؛ ولتلفت أنظار العرب إلى عظم مصيبتها ، واستمرت على هذا الحال أعوامًا حتى بلغت من الشهرة والفصاحة والبيان؛ ما أهلها لأن تقوم بالتحكيم بين الشعراء المتنافسين(ابن قتيبة،1969: 344) .

كانت الشاعرة الخنساء بنت عمرو بن الشريد ، وهي المرأة الحرة البدوية على قدر كبير من الحشمة والوقار، فقد كان لباسها كغيرها من النساء العربيات ثوب طويل واسع يستر القسم الأسفل من الجسد، ولم يكن في الثوب فتحات أو جيوب إلا الفتحة التي يدخل منها الرأس، أما غطاء الرأس فهو الخمار((وهو ما تغطي به المرأة رأسها وتخمرت بالخمار لبسته)) (ابن منظور، 2003: 216)، والعرب في الجاهلية يمدحون المرأة التي ترتدي الخمار، فهو عندهم كناية عن العفة والحياء، وإلى ذلك أشار أخوها صخر بن عمرو بن الشريد بقوله:

واللهِ لا أمنحهـا شرارهـا وهي حَصانٌ قد كفتني عارها

ولو هلكتُ خرقتْ خمارهـا واتخذت من شعـر صدارهـا

(ابن قتيبة،1969: ٣٤٥).

ولقول صخر هذا حكايةٌ روتها الخنساء، إذ قالت: ((إن زوجي كان رجلاً متلافًا للأموال، يقامر بالقداح فأتلف فيها ماله حتى بقينا على غير شيء، فأراد أن يسافر فقلت له: أقم و أنا آتي أخي صخرًا فأسأله ،فأتيته فشكوت له حالنا، وقلة ذات أيدينا فشاطرني ماله ، فانطلق زوجي فقامر به فقمر حتى لم يبق لنا شيء ؛ فعدت إليه في العام المقبل أشكو إليه غلبة حالته فصار بمثل ذلك فأتلفه زوجي ، فلما كان في الثالثة أو الرابعة خلت بصخر زوجته فعذلته، ثم قالت إن زوجها مقامر وهذا ما لا يقوم له شيء فأن كان لا بد من صلتها فأعطها خمس ؛ فإنما هو متلف والخير والشر سيان- ثم شطر ماله فأعطاني أفضل شطريه، فلما هلك اتخذت الصدار، وقلت: والله لا أخلف ظنه ولا أكذب قوله ما حييتُ)) (فواز، 2012: 189).

من هنا نجد أن المرأة في العصر الجاهلي لبست الحجاب وحافظت على العفة والحشمة في مجتمع يقدس العفة ويعتز بها ، والمرأة العفيفة محط أنظار الرجال يجلونها ويحترمونها ويبذلون الغالي والنفيس من أجل رعايتها وتوفير الحياة الحرة الكريمة لها.

وفي حجاب المرأة الملبوس نجد أنّ المرأة في العصر الجاهلي كانت قد خضعت للتقاليد والأعراف التي ألفتها في قومها فبعد أن حرصت النساء على لبس الحجاب وعدم التخلي عنه نجدهنَ يسفرنَ عن وجوههن إذا ما ألمَ بهن خطبٌ عظيم لاسيما إذا فقدت المرأة أحدًا من ذويها أو أقاربها أو أبناء عشيرتها، فحين ذاك يبلغ الحزن والألم والجزع مداه فلا تكتف النساء بالإسفار عن وجوههن؛ بل كن يمتنعن عن لبس الملابس المصبوغة بألوان زاهية، ويعمدن إلى التوشح بالسواد، فضلاً عن ذلك كن يلبسن الملابس البالية الخشنة ، وقد فعلن أكثر من ذلك إذ عمدن إلى حلق شعورهن وتعليق النعلين على صدورهن؛ كنايةً عن الزهد في الدنيا، كما فعلت الخنساء بنت عمرو بن الشريد(محمد، 1998: 21)، وكذلك فعلت الشاعرة أم الأغر التغلبية (وهي بنت ربيعة بن وائل وإحدى أخوات كليب بن وائل في الجاهلية (اليسوعي، 1897 :3) حين خاطبت نساء العشيرة في سياق رثائها لغرسان بن روحان الذي كان قد قُتِل أثناء مشاركته لأخيه البراق بن روحان في تحرير ليلى بنت لكيز (وهي ليلى بنت لكيز بن مُرة ، وتلّقب بـ (ليلى العفيفة) وهـي زوج البـراق بن روحــان وابنة عمه، (اليسوعي، 1897: 2) من أسر الفرس إذ حرّضت نساء العشيرة على ترك التجمل وإظهار مظاهر الحزن، إذ قالت:

دعَنَّ التجمل وارفعنَ الحجاب ضحى على أبي نصر لا تبكي على أحد

(مرديني، 1422: 136).

يتبين مما سبق إنّ المرأة في العصر الجاهلي شديدة الامتثال للأعراف والتقاليد التي ألفتها في قومها، ولم يشغلها حجاب أو زينة عن ذكر موتاها أو البكاء عليهم؛ لهذا نجد أن الأصمعي كان قد قال:((إنّ المـرأة كانت تلقي خمارهـا لحسنها وهي على عفــة)) (الناصر ودرويش،1413: 170).

وبعد هذا لا تُعدُّ ظاهرة حسر المرأة لخمارها أو نقابها التي غالبًا ما تأتي في شعر المرأة في غرض الرثاء أو الحماسة أو التحريض إلاّ عرفا قبليًا أو نهجًا تتبعه المرأة؛ إذا ما شعرت بالحزن أو إذا شعرت بالخوف والذعر من أي اعتداء من خارج حدود القبيلة أو داخلها ، لعلمها أنّ البكاء والعويل وطرح الخمار له دورٌ فاعل في استثارة رجال القبيلة في حال كان المرثي

مقتولاً، فالشاعرة ريطة بنت عاصم (لم أعثر على ترجمة لها في المصادر الأدبية) لم تستطع إلا أن تشارك نساء العشيرة التي تنتمي إليها في الحزن والبكاء؛ لأن القبيلة هي التي رفدتها بسائر الأعراف والتقاليد ولا شك في ذلك.

قالت ريطة بنت عاصم ترثي فرسان القبيلة:

وقفت فأبكتني بدار عشيرتي على رزئهن الباكيات الحواسر

غدوا كسيوف الهند وراد حومة من الموت أعيا وردهن المصادر

فوارس حاموا عن حريمي وحافظوا بدار المنايا والقنا متشاجر

(يموت، 1934: 47).

وبعد أن تحدثنا عن حجاب المرأة الملبوس وخضوع المرأة المحجبة للتقاليد والأعراف أصبح لزامًا علينا أن نشير إلى أن ظاهرة السفور في العصر الجاهلي، ونعني بها عدم لبس المرأة للحجاب مطلقًا وإظهار شعرها وبعض مفاتن جسدها للغرباء، فمن خلال تتبع الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي وجدنا أنّ ظاهرة السفور قليلة جدًا قياسًا إلى ظاهرة الحجاب المحتشم، فالنصوص الشعرية نادرة جدا؛ إلاّ إننا وجدنا من الضروري الحديث عنها ؛ لأنها تمثل حالة نادرة وغير مرغوب فيها من قبل المرأة الشاعرة في العصر الجاهلي ، فالشاعرة وهيبة بنت عبد العزى (وهي وهيبة بنت عبد العزى بن قيس شاعرة جاهلية، وهي زوج زيد بن مية الذي قتله هزال بن عوف بن كعب (يموت، 1934: 70) التي قُتل زوجها في سوق عكاظ الذي كان العرب يجتمعون فيه، وقد جرت الأعراف أنهم يؤمنون مقامهم فيه، ويضعون السلاح، ويجتنبون السوق كل غدر وخيانة؛ لهذا استخدمت الشاعرة وهيبة ظاهرة السفور إذ هي قليلة وبائنة للعيان كدلالة رمزية لفضح الغادرين والتنكيل بهم فغدرهم مفضوح مثل امرأة شيباء ليس على رأسها ما تستتر به شيبها، ومن المعروف أن الإنسان حين يرى شيئًا غريبًا لم يعتد رؤيته أو لم يره في السابق يشير إليه.

قالت وهيبة بنت عبد العزى ترثي زوجها وتحرض جاره الزبرقان بن بدر على الثأر له:

متى تردوا عكاظ توافقوها باسماع مجادعها قصار

أجيران ابن مية خبروني أعين لابن مية أو ضمار

تجلل خزيهـا عـوف بن كعب فليس لخلفهـا منــه اعتذار

فإنكـم ومـا تخفـون منــه كـذات الشيب ليس لها خمار

(يموت، 1934: 70)

مما تقدم آنفًا، تتضح لنا صورًا ودلالات مختلفة ضمن أطرها الأخلاقية والاجتماعية والسياسية والنفسية، وقد وظفتها الشواعر الجاهليات في التعبير عما يختلج في دواخلهن من أمور تتعلق بهن أو بمن وصفن على سبيل المديح، أو الرثاء، أو الهجاء، أو الحماسة، أو التحريض.

وقد شكل الحجاب في شعرهنَّ معينا ثرًّا لإبراز تلك الصور والدلالات التي رغبت الشواعر الجاهليات إخبار المتلقي بها، لاسيّما وانهنّ كن قد لبسنّ الحجاب لحاجته الأساسية ، إذ سترن به مفاتن جسدهن عن الغرباء، فضلاً عن أنّ الحجاب كان وسيلة ناجعة لإظهار عمق الانتماء القبلي، فهو يمثل الشرف والمجد والرفعة للقبائل اللائي ينتمين إليها.

المبحث الثاني: الحجاب غير الملبوس

هو كل ما ستر المرأة وكان حائلاً بينها وبين الأجانب، وأدلُّ صورة من صوره هي حجاب الخدر، إذ كثيرًا ما تطرقت له الشواعر الجاهليات في أشعارهن ((فقد كان له هالة كبيرة من القدسية والمنزلة حيث أنّه بمثابة مأوى وستر للمرأة، والذي لا يمكن للأجنبي أن يصله)) (عجيان، 2008: ١٤٠)، ومن أوضح الدلائل على حماية الخدور من قبل رجالات القبيلة وفرسانها نجده في فخر الخنساء بنت عمرو بن الشريد بأخيها صخر في سياق رثائها له، قالت:

تدين الخادرات له إذا ما سمعن زئيره في كل فجر

(محمد، 1998: 98)

نلحظ من هذا البيت أن الشاعرة كانت تحرض الخادرات (النساء) على البكاء والحزن لمقتل أخيها صخر؛ فقد كان له فضل الحماية والأمان لهُنّ، إذ كنّ يقرن في خدورهُنّ آمنات مطمئنات إذا ما سمعن صوته كلَّ صباح فهو كالأسد يحمي عرينه من الغرباء.

ونطالع صورة أخرى من صور حجاب الخدر في هجاء الشاعرة هند بنت عصم السدوسية شاعرة جاهلية وهي زوج ربيعة بن غزالة الكندي وكان زوجها من ذوي الرأي والمشورة في قومه، (كحالة، 1959: 236) لزوجة ابنها بعد أن تخاصمت معها فشكتها لابنها بهجاء ملؤه البغض والسخرية، إذ قالت:

أيزيـد قـد لاقيـت منـكرةً عجلـت بأمّك مدخـل القبر

هوجاء جاهلـة إذا ما نطقت ليست كعـابًا بيضـة الخدر

(ابن طيفور، 2005: 117)

في هذين البيتين نجد أنّ الشاعرة تغض من حياء وستر زوجة ابنها وترميها بأقبح العيوب وأشنعها إذ تنفي عنها سترها؛ فهي ليست ممن يحتجبن في خدورهن .

وفي رثاء الشاعرة هند بنت معبد بن خالد(شاعرة جاهلية، كان جدها ينادم النعمان بن المنذر فسكر النعمان فأمر بقتله، فنظمت شعرًا في رثائه ، (اليسوعي ، 1897: 92) لابن أخيها خالد بن حبيب نجدها تحرض نساء العشيرة على الخروج من خدورهن اللائي كُنّ يستترن فيها باكيات لاطمات الوجوه والخدود من غير خجل أو حياء، قالت:

وبمـا مسكمـا من خفا

إن تبكيـا لا تبكيـا هينـًا يومك لا يذكر فيها الحيا

إذ تخـرج الكاعب من خدرها

(يموت، 1934: 28).

تعددت صور الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي بتعدد أسلوبهن، وبتعدد الرؤى ، ومدى تأثرهن بالتجارب وبالأحداث لاسيما الحروب التي دارت رحاها بين القبائل العربية ،والتي عرفت بأيام العرب، ففي يوم الحريرة (إبراهيم والبجاوي،2007: 257) قُتِل زوج الشاعرة فاطمة بنت الأحجم الخزاعية (باقر،2011: 42) فما كان منها إلا أن ترثيه بقصيدة تُعدّ نموذجا رفيعا لمثل هذا النوع من القصائد ، عبرت من خلالها عن عمق حزنها ولوعتها وعدم استقرارها بعد فقده، فقد كان زوجها سترًا وملاذًا تلوذ به، إذ يدفع عنها شر الظالمين، ويحميها من المعتدين، إذ قالت فاطمة ترثي زوجها الجراح:

قـد كنت لـي جبـلاً ألوذُ بظله فتركتنـي أضحى باجـرد ضاح

قد كنت ذات حمية ما عشت لي أمشي البراز وكنت أنت جناحي

فاليـوم أخضع للذليـل واتقي منـه وأدفـع ظالمـي بالراح

(اليسوعي ،1897: 66- ٦٧).

من خلال النص نجد أنّ الشاعرة رسمت صورة رفيعة المستوى لزوجها المقتول، إذ إنها لجأت إلى عنصر من عناصر البيئة(الجبل) وجعلته معادلاً موضوعيًا لزوجها المقتول، ففي التشبيه الذي عقدته جعلت الصلة وطيدة بين زوجها والجبل؛ فهما يشتركان في العلو والقوة والمنعة والستر.

وفي شعر الحجاب غير الملبوس، تطالعنا جليلة بنت مره الشيبانية، وهي شاعرة فصيحة من شواعر الجاهلية كانت ذات شأن ومكانة راقية في المجتمع الجاهلي، وهي اخت جساس بن مره الذي قتل زوجها كليب وائل التغلبي بسبب ناقة خالته البسوس (كحالة، 1959: ٢٠١-٢٠٢)، وحين قتل جساس كليباً اجتمعت نساء الحي في مأتمه فقلنَ لأخت كليب رحلي جليلة عن مأتمكِ فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب.

فقالت: يا هذه اخرجي من مأتمنا فأنكِ اخت واترنا وشقيقة قاتلنا، فخرجت وهي تجر اعطافها فلقيها ابوها مرة فقال لها: ما ورائك يا جليلة؟ فقالت: ثقل العدد وحزن الابد وتفتت الاكباد فقال لها: أو يكفِ كرم الصفح و اغلاء الديات فقالت جليلة: امنية مخدوع ورب الكعبة.

ولما رحلت جليلة قالت اخت كليب: رحلة المعتدي وفراق الشامت ويل غدا لأول مرة من الكرة بعد الكرة فبلغ قولها جليلة فقالت: وكيف تشمت الحرة بهتك سترها وترقب وترها اسعد الله جد اختي أفلا قالت نفرت الحياء وخوف الاعتداء (كحالة ، 1959: ٢٠١-٢٠٢) ، قالت جليلة ترثي زوجها كليباً :

يـا كليـب انت لـي ذخر المنى كنـت عـزي وردائـي المسبل

مـا أظـن الدهـر يأتي مثلـهُ فـارس الحـرب ومُردي البطلِ

جـل عنـدي فعـل جساس فيا حسرتي عمـا انجلت أو تنجلي

(اليسوعي ، 1897: ١١)

يبدو ان ما اكتسبته المرأة الشاعرة من الأعراف والتقاليد والعادات القبلية جاء متسقاً مع ما طبعت به فطرتها السليمة، إذ يعكس مثلها وأخلاقها، فلا يعد غريباً ما تكني به المرأة الشاعرة زوجها ب(الرداء المسبلِ) فالزوج يستر ويحمي كالثوب الطويل الذي يستر الجسد، والعرب في الجاهلية تكني عن الزوج بالأزار أو اللباس أو الرداء، لأنه يستر المرأة ويبعدها عن الحرام، ويعد هذا من الصفات والاخلاق الحميدة التي اقرها الإسلام بعد بزوغ نوره وعمل على تثبيتها في المجتمع الإسلامي فقد جاء في الكتاب الحكيم قوله تعالى: ﴿ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ﴾ (القران الكريم ، البقرة ، من الآية ١٨٧) .

فمع ما يحمل هذا الجزء من الآية العظيمة من معاني سامية تصف العلاقة بين الزوجين نجد التشبيه الحسي الذي يدل على الجمع بينهما ، وستر كل واحد منهما للآخر.

إنّ المتقصي للحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي يجد أنّ العلاقة بين حجاب المرأة والرجل علاقة وطيدة لا ينفك عراها، على الرغم من أن الحجاب يمثل الجانب الذاتي للمرأة؛ إلاّ إنها دائمة البحث عمّا يضمن لها ديمومة الستر والعفاف، ويوفر لها مقوماته ومنها الحماية والآمان؛ وغالبًا ما تجد ضالتها في الرجل. فالشاعرة أميمة بنت أمية بن عبد شمس(إبراهيم والبجاوي،2007: 258)، في سياق رثاء أخيها أبي سفيان بن أمية ومن قُتل من رجال القبيلة في يوم الحريرة، قالت:

ألا يـا عيــن فابكيهـم بدمـع منـك مستغـرب

فـأن أبكــي فهـم عزي وهـم ركنــي وهم منكبٌ

وهـم أصلــي وهـم فرعي وهـم نسبي إذا أُنسـبُ

وهــم مجدي وهــم شرفي وهـم حصني إذا أرهـبُ

(إبراهيم والبجاوي، 2007: 258).

الخطاب في النص موجه من الشاعرة إلى ذاتها تعكف عليها وتحاكيها وتدعو عينيها أن تصب الدمع على من قُتل من الأهل والأحبة، وتبدو رغبتها ملحة في البكاء ؛ لاسيّما بعد أن حرصت الشاعرة على اظهار انتمائها إلى قومها، وبيان فضلهم، إلا إن أبرز ما نلحظه في النص المبالغة الكثيرة في التركيز على الأنا الشاعرة في محاولة منها لإبراز خصوصيتها المتفردة، ونجد هذا واضحًا في توزيع ضمير المتكلم على امتداد النص (عزي– ركني– أصلي– فرعي – نسبي – مجدي – شرفي– حصني)، إذ حاولت الشاعرة أنْ تجعل من ذاتها المحور الأساس في خطابها؛ لأنّ الخطاب بصدد بيان موضوع عفاف المرأة وسترها الذي تتفرع منه هذه المفردات، فالركن هو((ركن يركن ركونا مال إلى الشيء واطمأن إليه)) (ابن منظور،2003: ٢٣٥) ، وكذلك الحال في الحصن فهو المكان الحصين الذي لا يصل إلى ما في جوفه ... والمحصنات العفائف من النساء (ابن منظور،2033: 479–480)، فرجال القبيلة التي تنتمي إليها الشاعرة هم الركن الآمن الذي يحميها من الغرباء، وهم الحصن الآمن الذي تحتمي بظله ، وهم الشرف وهم العز والهيبة، لهذا كله انصهرت ذات الشاعرة في ذات رجال القبيلة، فكانوا جميعا جزء لا يتجزء من حياتها التي هي بصدد رثائها فبفقدهم فقدت حياتها التي رهنتها ببقائهم فيها.

وتطالعنا في شعر الخنساء بنت عمرو بن الشريد صورة جميلة عن الحجاب غير الملبوس وهي تفخر بفروسية أخيها صخر في سياق رثائها له، فقد جعلت من ظلمات الليل سترا له من الأعداء، فسواد الليل يستر كما الجلباب يستر، إذ قالت:

يعدو بــه سابحٌ نهدٌ مراكبه إذا اكتسى بسواد الليل جلبابا

(محمد، 1998: 76)

ومن صور الحجاب غير الملبوس في شعر المرأة الجاهلية ما عكس لنا صورة حية عن المجتمع العربي آنذاك، فقد كان المجتمع يرفع من القيم الأخلاقية ويحض عليها؛ فالمرأة ليست وحدها الحريصة على حيائها وعفتها ؛ بل إننا وجدنا الرجل العربي لا يقل عفةً وحياءً منها، فالرجل العربي في شعرها لا يدنو من الفاحشة ، ولا يتعرض للمرأة ويبتعد عن كل ما يسيء إليها أو يخدش حياءها، أو يحط من كرامتها، فحماية الجار وصون ستره من القيم الأخلاقية العريقة المتأصلة في شخص الرجل العربي تمنعه من الإساءة إلى جيرانه وفعل ما يكرهونه منه ؛ لذلك لم يطلعوا على عيب أو منقصة تنزله من عيونهم، وإلى ذلك أشارت الشاعرة الدعجاء اخت المنتشر بنت وهب الباهلي (اليسوعي،1897: 117)، وهي ترثيه عندما قتل في إحدى الغزوات، قالت:

لا يصعب الأمـر إلا ريث يركبه وكـل أمـر سوى الفحشاء يأتمرُ

لا يهتك الستر عن أنثى يطالعها ولا يشد إلـى جاراتــه النظرُ

(اليسوعي، 1897: 124).

وفي الحجاب في شعر المرأة غير الملبوس نجد نوعًا آخر من الحجاب وهو الحجاب النفسي فقد أشارت إليه الخنساء بنت عمرو بن الشريد وهي تفخر بعفة أخيها صخر الذي كان حريصًا على أن يحجب نفسه عن الأنظار في غياب جاره كي لا تراه جارته في غياب زوجها فيقع في نفسها الخوف والريب ، إذ قالت:

لم تره جارة يمشي بساحتها لريبة حين يخلي بيته الجار

(محمد، 1998: 231).

نخلص من هذا أنّ المرأة لم تكن وحدها حريصة على سترها وعفافها؛ بل شاركها في ذلك الرجل العربي الذي لا يقل عفة وحياء منها ،وهذا ما رسّخ لدينا أن القيم الأخلاقية والتي من أبرزها صون المرأة والحفاظ على سترها وعفافها كان مطلبًا مشتركًا بين الرجل والمرأة على حد سواء في المجتمع الجاهلي ؛ وليس كما قال د. طه حسين حينما تحدث عن فقر ذلك المجتمع وإباحيته إذ قال:((نحن نعلم من أخلاق البادين أنهم إلى المادة والإباحة أقرب منهم إلى العذرية)) (حسين، ١٩٢٥: 18).

من خلال تقصي(الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي نصل إلى أن شعر الحجاب قدّم لنا صورة حية لحجاب المرأة آنذاك التي تتصف بالستر والعفة والحياء والهيبة والوقار، وهي صورة متصلة بالفطرة السليمة التي جبلت عليها من جهة، وبالواقع الاجتماعي وما يجب أن تكون عليه في نظر قبيلتها من جهة أخرى.

نتائج البحث:

توصل البحث الى ان مصطلح الحجاب واسع ومتشعب تتسع دلالته إلى أكثر من الملابس التي تستر بها المرأة مفاتن جسدها، إذ يلتقي فيه الجانب الأخلاقي والنفسي والاجتماعي والسياسي فضلاً عن الجانب البيئي .

- كشف البحث عن حب المرأة الجاهلية لحجابها واعتزازها به، إذ لم ترد نصوص شعرية قالتها المرأة في العصر الجاهلي يظهر فيها نفورها منه.

- انتهى البحث إلى أن النساء في العصر الجاهلي لم يكن جميعهن يسترنّ وجوههن بالنقاب أو الخمار وما شابههما، إذ تبين لنا أن بعضَهن كُنّ يسترن أجسادهن وشعورهن فقط، ويظهرن وجوههن.

- قدم لنا الحجاب في شعر المرأة في العصر الجاهلي صورة حية عن حجاب المرأة التي تتصف بالستر والعفاف والحياء والهيبة والوقار، وهي صورة متصلة بالفطرة السليمة من جهة، وبواقعها الاجتماعي وما يجب أن تكون عليه في نظر القبيلة من جهة أخرى.

- تبيّن للباحثة أنّ المرأة العربية لم تكن وحدها حريصة على الستر والعفاف بل شاركها في ذلك الرجل، فالحفاظ على ستر المرأة وعفافها كان مطلبًا مشتركًا بينهما على الرغم من وجود دراسات وأبحاث أشارت إلى تهميش المرأة وإباحيتها في تلك الفترة.

- ظهر للبحث أنّ ظاهرة السفور كانت قليلة ونادرة قياسًا إلى ظاهرة الحجاب المحتشم فضلاً عن أنها ظاهرة غير محببة ولا مرغوب فيها في المجتمع الجاهلي.

- كشفت الدراسة عن قدرة الشواعر الجاهليات فكريًا وثقافيًا وأدبيًا على نظم شعر الحجاب في مختلف الأغراض الشعرية التي تناولتها بصدقٍ وعفويةٍ ويسرٍ.

- ظهر للباحثة أن الشواعر الجاهليات كنّ يختزلن في فكرهنَّ الاحداث الجسيمة التي مرّ بها قومهن مما أهلنَّ ليعبرنَّ عنها في أشعارهن ، فقد منحت هذه الاحداث تطورات إنسانية في ذواتهن مكنتهن من إعطاء وصف دقيق نقل صورة حية من حياتهن إذ كن يربطن بين الاحداث التي تثير العواطف والمعاني الأخلاقية فشملت معظم جوانب الحياة العربية.

قائمة المصادر والمراجع

القران الكريم

- ابراهيم ، والبجاوي ، محمد أبو الفضل ، علي محمد ، أيام العرب في الجاهلية ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت ،٢٠٠٧م.

- ابن قتيبة ، أبو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦ هـ) الشعر والشعراء ، دار الثقافة ، بيروت – لبنان ، ط٢، ١٩٦٩م.

- ابن منظور ، أبو الفضل محمد بن مكرم (ت ٧١١ هـ) دار الحديث القاهرة ٢٠٠٣ م .
- أسعد ، يوسف ميخائيل ، سيكولوجية الإبداع في الفن والأدب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٦ م .
- باقر ، د نضال احمد ، شعر المخضرمات في الجاهلية والإسلام ، جمع وتحقيق ودراسة ، منشورات المجمع العلمي العراقي ، بغداد ، ٢٠١١ م .
- الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر (ت٢٥٥ هـ) رسائل الجاحظ تحقيق: عبد السلام محمد هارون ، مكتبة الخانجي ، القاهرة، ١٩٦٤ م .
- الجرجاني ، السيد الشريف أبي الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني (ت ٨١٦ هـ) التعريفات، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود ، دار الكتب العلمية ، بيروت – لبنان ط٢ ، ٢٠٠٣ م .
- حسين ، طه ، حديث الأربعاء ، دار المعارف ، مصر ، ط١٤ ، ١٩٢٥م .
- خليف ، د يوسف ، الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي ، دار المعارف ، القاهرة ، ط٣ ، ١٩٦٦م .
- زيدان، جرجي ، تاريخ آداب اللغة العربية ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، القاهرة ، ٢٠١٢م.
- صيام ، محمد الشيخ محمود ، المعتقدات والقيم في العصر الجاهلي ، تحقيق حسن محمد باجودة، السعودية ١٩٨٢م
- طيفور ، الإمام أبي الفضل احمد بن ابي طاهر (ت٢٨٠ هـ) ، كتاب بلاغات النساء وطرائف كلامهن وملح نوادرهن وأخبار ذوات الرأي منهن في الجاهلية وصدر الإسلام، اعتنى به وفهرسه: بركات يوسف هبود ، المكتبة العصرية ، صيدا – بيروت ٢٠٠٥ م .
- عجيان ، عادل علي ، هي المرأة في التاريخ والمجتمع والدين ، دار الخليج العربي ، بيروت لبنان ، ط١ ، ٢٠٠٨ م.
- عفيفي، عبد الله، المرأة العربية في جاهليتها وإسلامها، مكتبة الثقافة،السعودية ، ط٢ ،١٩٣٢م.
- فواز، زينب ، الدر المنثور في طبقات ربات الخدور ، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة ، مصر – القاهرة ، ٢٠١٢م .
- القلعجي ، محمد رواس ، معجم لغة الفقهاء ، دار النفائس ، بيروت – لبنان ، ط٢ ، ١٩٨٨م .
- كحالة ، عمر رضا ، أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، طبعة مزيدة وفيها مستدرك ، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر ، بيروت – ١٩٥٩م .
- المبرد ، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٥ هـ) الكامل في اللغة والأدب، مكتبة المعارف، بيروت (د. ت).

- محمد ، فايز ، شرح ديوان الخنساء (تقديم وشرح) صنعة أبي العباس ثعلب ، دار الكتاب العربي، بيروت ط٣، ١٩٩٨م
- مرديني ، رغداء ، شواعر الجاهلية ، دراسة نقدية ، دار الفكر ، دمشق ، ط١، ١٤٢٢ هـ.
- المرزوقي ، أبو علي أحمد بن محمد بن الحسن (ت ٤٢١ هـ) شرح ديوان الحماسة ، تحقيق: غريد الشيخ ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، ط١ ، ٢٠٠٣ م .
- المشهداني، د محمد جاسم حمادي ، حرب بني شيبان مع كسرى انشروان ، مكتبة الجامعة المستنصرية ، بغداد ، ١٩٨٧م .
- الناصر، ودرويش ، محمد ، خولة ، المرأة بين الجاهلية والإسلام ، السعودية، ط ١، ١٤١٣هـ.
- الهاشمي ، د علي ، المرأة في الشعر الجاهلي ، مطبعة المعارف ، بغداد ، ١٩٦٠ م .
- وجدي ، محمد فريد ، دائرة معارف القرن العشرون ، دار الفكر، بيروت ، (د. ت).
- اليسوعي ، لويس شيخو ، رياض الادب في مراثي شوعر العرب، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٨٩٧م.
- يموت، بشير ، شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام ، جمعه ورتبه ووقف على طبعه: المطبعة الوطنية ، بيروت ، ١٣٥٢ هـ- ١٩٣٤م.

List of Contemporary Sources and References,

The Holy Qur'an,

- Ibrahim, Al-Bajjawi, Muhammad Abu Al-Fadl, Ali Muhammad, The Days of the Arabs in the Pre-Islamic Period, Library, Sidon, Beirut, 2007 2
- Ibn Qutaiba , Abu Mohamed Abdullah Bin Muslim (died 276) A.D, poets and poetry , dar al-Thaqafa , . Beirut - Lebanon, 2nd edition 1969
- Ibn Manzoor, Abu al-Fadl Muhammad bin Makram (died 711 AH) Dar al-Hadith, Cairo 2003 AD.

- Asaad, Youssef Mikhail, The Psychology of Creativity in Art and Literature, The Egyptian General Authority, 1986 AD. The book;
- Baqir, Dr. Nidal Ahmed, The Poetry of Veteran in Pre-Islamic Age and Islam, collection, investigation and study, Iraqi Scientific Academy Publications, Baghdad, 2011.
- Al-Jahidh, Abu Othman Amr bin Yahr (died 255 AH) Al-Jahidh letters Investigated by: Abdul Salam Muhammad Harun, Al-Khanji Library, Cairo, 1994 AD
- Al-Jurjani, Mr. Sharif Abi Al-Hassan Ali bin Muhammad bin Ali Al-Husseini (d. 16 AH) Definitions, his footnotes and indexes : Muhammad Basil Oyoun Al-Soud, Dar Al-Kutub Al-Ilmiyya, Beirut - Lebanon 2, 2003 AD.
- Hussein, Taha, Hadith Wednesday, Dar Al-Maaref, Egypt, Edition 1, 1925 AD.
- Khalifa , Dr. Youssef, trampling poets in the pre-Islamic era, Dar Al-Maaref, Cairo, 1966
- Zidan , Jarji , Arabic Language Arts, Hindawi Foundation for Education and Culture, Cairo, 2012 A.H.
- Siam, Muhammad Sheikh Mahmoud, Beliefs and Values in the Pre-Islamic Era, investigated by Hassan Muhammad Bajouda, Saudi Arabia 1982 A.D.
- Tayfur, Imam Abi Al-Fadl Ahmed bin Abi Taher (d. 280 A.H.) The book, “Balaghat al-Nisa’ and their Anecdotes, Milh of their Anecdotes, and News of Women’s Opinion in the Pre-Islamic Age and Early Islam” was announced and indexed by: Barakat Youssef Haboud, Al-Asriya Library, Sidon, Beirut, 2005

- Ajian, Adel Ali, Women in History, Society and Religion, Arab Gulf House, Beirut, Lebanon, I, 2008.
- AFifi, Abdullah , the Arab woman in her pre-Islamic period and Islam, Library of Culture, Saudi Arabia, 2nd edition,
- Fawaz, Zainab "al-Dur al-Manthur fi Tabaqat Rabat al-Khudoor" Hindawi Foundation for Education and Cairo , Egypt, 2012
- Qaalaji , Mohammed Rawas , encyclopedia of jurists, Dar Al-Nafais, Beirut - Lebanon, 2nd Edition, 1988
- Kahala, Omar Rida, Alam al-Nisaa in the Arab and Islamic Worlds, an additional edition with Mark, Al-Resala Foundation for Printing and Publishing, Beirut - 1959 A.D.
- Al-Mubrd, Abu Al-Abbas Muhammad bin Yazd (d. 280 AH) al-Kamel in Language and Literature, Library of Knowledge , Beirut
- Mohammed , Fayez, Explanation of the Diwan of Al-Khansa's Evaluation and Explanation (made by Abi Al-Abbas Thalab, Dar Al-Kitab Al-Arabi, Beirut 3, 1998 AD).
- Murdini , Raghdaa: Poetry of the Pre-Islamic era, a critical study, Dar Al-Fikr, Damascus, I 1, 1422 AH,
- Al-Marzuki , Abu Ali Ahmed Muhammad ibn al-Hassan (421AH) Explanation of Diwan al-Hamasah, investigation: Ghareed al-Sheikh, Dar al-Kutub al-Ilmiyya, Beirut, Ta, 2003 AD.
- Al-Mishhadani , Dr. Mohammed jasim Hammadi ,the war of Bani Shaiban with Khosra Ansharwan, Al-Mustansiriya University Library, Baghdad, 1987 AD.

- Al-Nasir, Darwish, Muhammad, Khawla, The Woman between Pre-Islamic Times and Islam, Saudi Arabia, Edition 1, 1413 AH
- Al-Hashimi, Dr. Ali, Women in Pre-Islamic Poetry, Al-Maaref Press, Baghdad, 1990 AD.
- Wajdi, Muhammad Farid, Da'ret al-Maarf of the Twentieth Century, Dar Al-Fikr, Beirut.
- Al-Yasuaee , Louis Sheikho, Riyad Al-Adab Fi Marathi Shuaar al-Arab The Catholic Press of the Jesuit Fathers, Beirut, 1897AD.
- Yamout, Bsheer , Arab female poets in the pre-Islamic era and Islam, compiled, arranged and endowed on the edition: The National Press, Beirut, 1352 AH - 1934 AD.